

المكان في رواية "رَجُلٌ وَحِيدٌ جَدًّا" للكاتب الدكتور يحيى عباينة

محمد ماجد الدخيل*

ملخص

يُعالج هذا البحث المكان كأحد مكونات رواية "رَجُلٌ وَحِيدٌ جَدًّا"، موضوعاً مفهوماً، لغةً واصطلاحاً وأفاقه وأهميته في هذا العمل الروائي، كما يُبين قدرة الكاتب على توظيف المكان وارتباطه بالشخصيات والأحداث والفكرة والإيدولوجيا، وكاشفاً عن طبيعة العلاقة بينها، وتداخل المكان معها بشكل فني، الذي لا يخلو من غايات فنية وجمالية أثناء التطبيق.

الكلمات الدالة: المكان، رجل وحيد جداً، الرواية.

المقدمة

المكان. والموضع⁽²⁾، والمكان موضع لكيونة الشيء فيه، والجمع أمكنة وجمع الجمع أماكن⁽³⁾.

أما المكان اصطلاحاً، فقد تعددت مسمياته باختلاف الترجمة من جهة، وباختلاف زاوية النظر إليه من جهة أخرى، فظهر مصطلح البيئة المكانية، والفضاء المكاني والحيز وغيرها من المصطلحات التي لا تبتعد في جوهرها كثيراً، فالمكان عند باشلار⁽⁴⁾ (Bashlar) هو المكان الأليف، وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه أي بيت الطفولة. إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام البقطة، وتشكل فيه خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات الطفولة. ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور. أما المكان عند جرييه (Jreeh) فهو "موضع خالٍ من الدلالة، أو بمعنى أدق هو محض وجود موضوع صرف، ولذلك رأى جرييه أن إسباغ دلالة ما عليه أمر مناقض لطبيعته، بوصفه مجرد مكان، لا هو عبث ولا هو دلالة، إنه ببساطة موجود"⁽⁵⁾. ومهما تكن نظرة الناقد إلى المكان فمن واجبه أخذه بمفهومه الواسع لا الضيق وليس من الصواب النظر إليه في العمل الروائي على أنه تلك البقعة من الجغرافية المحدودة المرتبطة بمساحة محددة في الأرض في منطقة ما، بل يجب النظر إليه بدلالاته الرحبية الواسعة، والتي تشمل "البيئة بأرضها، وناسها، وأحداثها، وهمومها، وتقاليدها، وقيمها، فالمكان بهذا المفهوم كل زاخر بالحياة والحركة، يؤثر ويتأثر، ويتفاعل مع حركة الشخصيات وأفكارها كما يتفاعل مع الكاتب الروائي ذاته"⁽⁶⁾.

ب- أهمية المكان في العمل الروائي

لا يُعد العمل الروائي مكتملاً بعيداً عن المكان؛ لأنه لا يمكن تصور وجود رواية خارج المكان؛ لما له من اثر واضح على سلوك الشخصيات وتحركها في العمل الروائي، كما له

القارئ لرواية "رَجُلٌ وَحِيدٌ جَدًّا"⁽¹⁾ يجد نفسه غارقاً في بحر من الرموز التي سرعان ما يجبل فيها فكره وعقله عليه يلمح الرمز الفني العام الذي يغلف هذه الرواية. "ماريانا"، ويوسف الذهبي هما قطبا هذه الرواية، و"ماريانا" على وجه التحديد. هي المحور الذي تدور حوله الأحداث. إنها كما قال الكاتب. امرأة ليس لها وجود، فماذا تكن يا ترى؟ جنية؟ أم مخلوقاً آخر لم نسمع به من قبل؟ لا ندري، عليها تكون شيئاً آخر تماماً، قصد إليه الكاتب قصداً، وأقول قصداً؛ لأن الرواية تفصح عن هذا القصد أو هذه الغاية.

حاولت هذه الدراسة الحالية رُبط إichاءات الكاتب بما كتبه فعلاً، وعلى وجه الخصوص رُبط الشخص بالمكان من جهة، والمكان بالإيدولوجية من جهة أخرى، في دائرة المكان من بدايتها إلى نهايتها. وفي كل ذلك اعتمدت على منازل رؤاه أو معادلات فرضية استوحيتها؛ بغية إيصال الفكرة للقارئ الكريم. تلك المنازل الرؤيوية أو معادلاتها تقوم. وبشكل أساس. على رُبط المكان بالشخص تارة، فأقول مثلاً: مدينة الذهب. "ماريانا"، أو المدينة المتوسطة. توفيق الأثير، وهكذا دوليك... وربط المكان بالإيدولوجية تارة أخرى.

1- مفهوم المكان وأفاقه وأهميته

أ- في اللغة والاصطلاح

يُعرف "المكان" لغةً، على أنه المنزل، يقال هو رفيع

* كلية إربد الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، إربد، الأردن، تاريخ استلام البحث 2012/1/31، وتاريخ قبوله 2013/5/14.

في مصغر رمزي تشع فيه المعاني، "هذا المصغر لدى القاص إنما هو تكثيف للتفاصيل التي ينتقها الكاتب انتقاء حذراً بارعاً، أشبه بانتقاء الشاعر الألفاظ والصور، وإذ نكون في بحر متلاطم من التجارب، في بحر متلاطم من تجارب الحياة يأخذ الكاتب بيدنا إلى الجزر التي نرى فيها بعض ما نحن فيه"⁽¹³⁾.

2- التحليل الفني والكشف النقدي

أ- منازل الرؤيا الأولى ومعادلاتها الفرضية

"وادي الذهب"، "ويوسف الذهبي"

"يوسف الذهبي اختفى منذ زمن بعيد"⁽¹⁴⁾، هكذا قال الكاتب الدكتور يحيى عبابنة في إيحائه، هذا يعني أن "يوسف الذهبي" كان موجوداً في يوم من الأيام، وهو الشخص الوحيد الذي يعترف الكاتب بوجوده صراحة كما هو، ولكن من يكون "يوسف الذهبي" هذا؟ هذا ما سيتم كشفه وإمطاة اللثام عنه لاحقاً من خلال النصوص الروائية المقتبسة في ثنايا هذه الدراسة:-

"هل يمكن أن تفسر هذا يا يوسف؟"⁽¹⁵⁾.

"خرجت إليهم فوقفوا صامتين كأن على رؤوسهم الطير..."⁽¹⁶⁾.

"استمر الجو الماطر سبعة أيام....."⁽¹⁷⁾.

"ماريانا" بجمالها الكنعاني..."⁽¹⁸⁾.

رَامَ الصَّمْتُ زَمَاناً خَلْتَهُ سَنِينَ يَوْسُفَ الْعَجَافِ"⁽¹⁹⁾.

"هَذَا حَلْمٌ مَزَعَجٌ يَا يَوْسُفَ"⁽²⁰⁾.

أترى أن الكاتب يقصد إلى قصة سيدنا "يوسف" عليه الصلاة والسلام⁽²¹⁾؟ أم أنه أراد فقط أن يضيء هالة من القداسة على شخصيته هذه؟ أم أن شخصية (يوسف) هي شخصية بلغت من القداسة إلى حد مساواتها بالنبي؟ كلها أسئلة تبقى قائمة... فانظر إلى جميع ما تقدم من عبارات سابقة من نصوص هذه الرواية، وتفسير الأحلام والسنين العجاف، أليست هي نفسها الواردة في القرآن الكريم في سورة يوسف؟ نعم إنها كذلك. ولكن النتيجة المسحوبة من رحم الكلمة هي أن "يوسف" هذا لا يعني بالضرورة أن يكون النبي. عليه الصلاة والسلام، بل ربما يكون شخصاً آخر، وهذا الآخر هو ما أراه أقرب إلى الصواب. إن تحديد هوية هذا الشخص مرتبط بتحديد هوية المكان أو لنقل مرتبط بتحديد هوية "ماريانا"، فماريانا امرأة ليست لها وجود، أتكون مكاناً؟ ربما، وأنا أميل إلى ذلك. لكن "يوسف الذهبي" شخص حقيقي، و"ماريانا" المتنازع عليها من أشخاص عدة هي (مكان)، وأي مكان هذا إنه مكان ارتبط

دور في توجيه الحوادث، واختيار نوعية العمل الذي يؤديه كل فرد داخل العمل الروائي"⁽⁷⁾، فالأدب الروائي يُوظف المكان، ويصف أمكنة متعددة، ومناظر طبيعية، كما يُخلق. عبر الخيال. إلى مناطق مجهولة ويوهنا عبر القراءة بأننا نقطننا ونعيش فيها، وكان ما يبقى من آثار قراءتنا لأي عمل أدبي روائي يُمثل. غالباً. في أمرين رئيسين: المكان والشخصية التي تضطرب وتتحرك في ذلك المكان"⁽⁸⁾، وما يتولد عن ذلك الاضطراب من عناصر فنية أخرى تُشكل في مجملها العمل الروائي.

إذا، للمكان قيمة أساسية ومهمة في العمل الروائي؛ لأن المكان وعاء للحدث والشخصية، أو إطار لهما ولغيرهما من عناصر القصة، أو هو مجرد خلفية واضحة، أو باهتة على السواء مثلما هو أيضاً بمثابة بُعد مستقيم، حلزوني أو دائري أو ما شئت، يتسع لحركة الشخصية أو مسيرة الحدث"⁽⁹⁾. إن المكان يختلف من رواية إلى أخرى من حيث ضيقه وسعته، فأحياناً يضيق المكان، وفي هذه الحالة تصبح علاقة الإنسان الذي يعيش فيه أكبر، والصلة بينهما تكون وثيقة"⁽¹⁰⁾، وتزداد الشخصية ارتباطاً بالمكان والنصاقاً به، وتصبح قدرتها على الحركة والتنقل محدودة، وهذا يتطلب مقدرة عالية من الأديب على إدارة الحوار الذاتي مع الشخصية، ومع الشخصيات الأخرى. وفي أحيان أخرى يتسع المكان، ويصبح المجال فسيحاً أمام الشخصيات للحركة والتنقل، وهذا بدوره قد يدفع الملل عن القارئ؛ لقلّة تكرار المكان. إن الروائي الحصيف من استطاع الانسراح مع الخيال المجنح، ودفعنا للعيش في المكان الذي رسمه لروايته، فيتكرك تركض بين الحقول المترامية الأطراف، وتنتزه بين الحدائق الغناء، وتعيش في الأزقة، أو المدن أو القرى وغيرها، كل ذلك من خلال قراءة النصوص الروائية ومتابعة حركة شخصياتها واضطرابها في مكان ما، أو خلال ما تصفه، فالكاتب الروائي البارح يستعين في رسم بيئة روايته المكانية "بالوسائل نفسها التي يستعين بها في سرد الحوادث، أو رسم الشخصيات، وهو يلتقطها كما يلتقط هذه بالملاحظة والمشاهدة، أو من قراءته الخاصة، أو ينسجها بخياله نسجاً مسلطاً عليها قوة الاختراع والإبداع، معتمداً على ما يلتقطه أثناء تجاربه في الحياة"⁽¹¹⁾، وإذا ما تمكن الروائي تحويل المكان المائل في الأدب السردي من مجرد تمثّل ذهني لدى القراءة أو خلالها، إلى استحضار قائم على التصوير الحسي الملتقط بالبصر، فهو يصل بالمكان إلى أرقى ما يمكن أن يبلغه"⁽¹²⁾.

إن الروائي البارح يستطيع تشكيل واقع روايته، وليس المقصود به الواقع الحقيقي، بل ما يتمكن الأديب من بلورته

في وسطها جزء منها ذو حيوية. حيوية العبادة. دلالة على (القدس الشرقية)، وجزء آخر فاتر ارسنقراطي. دلالة على (القدس الغربية)، إنها موازنة... وأيما موازنة!

إن "ماريانا" معروفة، لكن اسمها كاد يغيب عن الذاكرة الجماعية، وعن نجدتها الأدبية، إنها الآن. فقط. تعيش في مخيلة الناس بشكل منقطع، وعلى أوراقهم التي رسموا عليها صورتها، إن "ماريانا" تموت بشكل بطيء، وهي بحاجة إلى (يوسف ذهبي) آخر.

ج- منازل الرؤيا الثالثة ومعادلاتها الفرضية

التفاعل الأول. عبد العال، مدينة الرمال

التفاعل الآخر. عبد الحميد، مدينة البحر

الانطلاق. هنا. يكون من دلالة الأسماء. وليست حجة. في دراسة هذين التفاعلين: عبد العال وعبد الحميد، وهما اسمان يدلان كل واحد على صاحبه، هما من إحدى الدول العربية الشقيقة، وهما كما ينطق لسان حاليهما... جنسيتهم المصرية، ومصر مدينة الرمال = (صحراء سيناء)، وهي مدينة البحر = (بحر النيل)، وإن "عبد الحميد"، و"عبد العال" هما في حب "ماريانا"، رأياها وأرادا الحصول عليها، لكنهما لم يستطيعا إلى ذلك سبيلاً، فقد كانا ضعيفين، وهما وحيدان، وقد بذلا كل ما بوسعهما حباً وعشقا، أحباها حباً يفوق كل حب، لكن النتيجة كانت قاسية عليهما لقد لقيتا حتفهما.

وليس عبثاً إن يرد ذكر مدينة الرمال قبل مدينة البحر. فجغرافياً من يريد الوصول إلى مصر قادماً من "وادي الذهب" (وادي الأردن أو وادي الحجاز الشمالي)، فإنه يمر بالصحراء أولاً ثم بالنيل ثانياً. ونلاحظ أن المكان صور بطريقة دقيقة جداً من الناحية الجغرافية، كما في اللقطة التصويرية التالية:

"كانت عُرفتي تطل على جانب كالج من البحر.. ولم أكن حقيقة أرغب في أن أرى الجانب الأرسنقراطي من البحر حيث الأجساد التي ترفض اللباس الساتر، لم أكن جائعاً إلى هذه الأجساد، كنت جائعاً إلى "ماريانا" فقط⁽²⁶⁾.

أليست "ماريانا" امرأة كباقي النساء، كما يشير اسمها؟ إن الرواية قالت: لا، إن "يوسف" في مدينة البحر لم يكن مشتاقاً لمظاهر الترف والأرسنقراطية، ولم يكن جائعاً إلى أي لذة، كان به جوعاً للقاء "ماريانا" فقط، أو قلّ جائعاً إلى القدس. إنه راضٍ بالجانب الكالج من البحر، فهو عنده خيرٌ من أجساد عارية فارغة أهملت البحث عن "ماريانا". إنه يبحث في قرارة نفسه عن أمة خشنه مجاهدة لا نائمة ولا خاضعة، إن هذا البعد الذي يبحث عنه في قرارة نفسه ما هو إلا صدى لإيديولوجية خاصة

بالقداسة، إن هذا المكان ربما يكون (القدس)، ويوسف الذهبي مقدس أيضاً، ألا يمكن أن يكون رمزاً لصلاح الدين الأيوبي (ت 589 هج)⁽²²⁾. أحد مُخلصيها من قيود الأسر والاحتلال، أو من هو أو هم على منواله؟

ب- منازل الرؤيا الثانية ومعادلاتها الفرضية

"ماريانا"، "وادي الذهب"، "مدينة الرمال"، "مدينة البحر"، "المدينة الكبيرة"، "المدينة المتوسطة":

ألا تلاحظ أيها القارئ الكريم لهذه الرواية أن تناقضاً وقع في هذه المعادلة الفرضية وبعدها الرؤيوي؟ ف"ماريانا" هي العنصر المتناقض بين تلك العناصر، أو لنقل إنها الشيء المميز بين المجموعة، وهي امرأة وسط أمكنة، ولو أردنا إصابة تفاعل ناجح لصححنا المعادلة فقلنا: "ماريانا" بما أنها كائنة عليّة ورمز بها لمكان، وأي مكان، إنه مكان مقدس. ولكن السؤال يبقى قائماً: "ماريانا" في هذه الرواية متحركة من مكان لآخر، فكيف تكون مكاناً والمكان ثابت أصلاً!

إن "ماريانا" بحركتها تلك تتم عن فعل معاكس تماماً، فبينما تُظهر الرواية حركتها عبر المدن إلا أن الحقيقة هي أن تلك الحركة السريعة ما هي إلا صدى للأثر على شخصها، وبمعنى آخر، إن حركة "ماريانا" ما هي إلا دليل على ثباتها؛ لأنها هدفٌ يسعى إليه بطل الرواية "يوسف الذهبي"، وليسعى إليه غيره وهدفٌ يبذل كل من يلقاها حياته فداءً لها. إنها غاية مقصودة لذاتها وإن عمدت الرواية إلى تصويرها بصورة أقرب إلى الساحرة أو الجنية، إلا إنها في الحقيقة هالة من القداسة، هذه القداسة أضيفت عليها لتعطيها قيمة البحث والاستقصاء" كان من الممكن لكل شيء أن يمضي بصورة طبيعية لولا تلك الرائحة، رائحة أرض مقدسة تنفذ إلى قلبي فتحيله شظايا من حنين⁽²³⁾. إن "ماريانا". وهي القدس لها هالة القداسة بحيث تترك أثراً سحرياً في المكان الذي تحل فيه، وإن القداسة كائنة في اسمها، وفي ماهيته ووحية المرتبط بالمسيحية تارة، وقداستها المرتبطة بالإسلام والمسيحية تارة أخرى، "ماريانا" أو "ماري" دلالة تنطق عن نفسها، (ماري) لنا، و(القدس) لنا، وهي قُدسنا أو "ماريانا".

إن "ماريانا" "بعينها الرماديتين الصافيتين"⁽²⁴⁾ تقبع في حالة وسط، لا تعرف وضعها، أتكون في حالة السواد أو البياض، إنها حائرة، أن تكون مع هذا أم مع ذلك، إنها رمادية الرؤى للأشياء تنتظر من يُخلصها ليُدخلها في دائرته، دائرة السواد أو دائرة البياض "إنها هي بشعرها الفاحم الغزير المسرح بحيوية مفرطة إلى جانب اليمين، في حين ينام جزء منه بفتور وارسنقراطية على كتفها الأيسر...⁽²⁵⁾. إنها حائرة، ولكنه يقبع

أطلقوا على منتجاتهم اسم ("ماريانا")، بل إن صاحب الفندق يفكر جدياً بتغيير اسم الفندق إلى ("ماريانا")⁽³⁰⁾.

إن لغة الكاتب جد هادفة ومعبرة، وإن توضيحه ظاهر لقضية التعلق بالقشور وترك اللباب أو الثمرة سهلة في يد مغتصبها، إن العرب بلغوا من الضعف والهوان درجة لا يستطيعون معها رد الظلم والقهر عن القدس السلبية. إنهم يطلقون اسم "القدس" على منتجاتهم وبعض حوانيتهم ومطاعمهم ودكاكينهم الشعبية ومصادر أرزاقهم؛ ظناً منهم أنهم يُخلدون هذه البقعة المقدسة ويستذكرونها، كل ذلك إنما ينم عن حالة من التعلق الواهي بالحبال المتهثرة، وفي الوقت نفسه نجد صوت الحسرة والندم ومحاولة سد العجز أو النقص للذين يعتريان نفس الإنسان العربي على المكان المفقود، إنه يحاول كثيراً الخلاص والتعويض دون جدوى.

إن استحالة الرجوع غطت على عينيه أي "يوسف الذهبي"، فيها هو يعتمد إلى تلك القشور على العود يكون حسياً والمادي مفقوداً!، فقال:

"كانت صوري الكثيرة تطرز حيطان المدينة الكبيرة، وكلها يحمل تحذيراً شديد اللهجة... فقد كتب تحتها بخط عربي جليل: إذا رأيتم صاحب هذه الصورة بعد انتهاء مدة إقامته فارجموه حتى الموت "قدمه هدر"⁽³¹⁾، وماذا كانت جنايته يا ترى؟ هل قُتل؟ أم هتك عرضاً؟ كل ذنبه أنه أحب. أحب "ماريانا" (قدسه) أحبها بقلبه حباً صوفياً صادقاً، وغدا يطلبها ويريد الوصول إليها، لكن المنتهذين يهدرون دمه. إنه تصریح من الكاتب عن منازل رؤاه وفلسفته وأيديولوجيته الخاصة وموقفه الراض من أعمال أولئك المنتهذين وقهرهم للإنسان وللمكان لكن الكاتب قال: "هل هناك أجمل من الشهداء يا يوسف"⁽³²⁾. إن الرواية الحداثية هي التعبير الأصيل عن مخاضات رحم المجتمع العربي، وولاداته بكل أطيافها وأشكالها المشروعة وغير المشروعة، الصحيحة والمشوهة، سليمة الفكر والجسد إن وجدت والمعاقبة"⁽³³⁾.

هـ. منازل الرؤيا الخامسة ومعادلاتها الفرضية

"يوسف الذهبي"، و"جبل العرافين"

ومن البدهي إن "ماريانا" تُجسد المكان المقدس، إنها امرأة ليس لها وجود، لكن المكان موجود، وهنا أرى أنه هنالك صورة معكوسة تكاد تكون. "جبل العرافين" لكنه مكان غير موجود، سيكون رمزاً لشيءٍ آخر؟ ربما، لكنني أرى أن هذا الجبل جاء ذكره في وقت يشعر المرء فيه بشيء من الهزيمة. إن "جبل العرافين" هو المعادل لصورة الضعف أو النقص التي تعترى

بالكاتب القائمة على التصوير من جهة، وإظهار صراعها مع ذاتها والآخر، في هذه الرواية. إن هذا الفكر قائم على النقد والتوجيه، نقدٌ لاذعٌ للنوم، وحث من جهة أخرى على العمل والمثابرة، إنها رؤيا الحرية والخلاص ليس إلا، كما قصد كاتبها. في أغلب الظن. "وهو الصوت الخفي الذي لا يتجسد إلا من خلال ملفوظه"⁽²⁷⁾، وهو الذي يأخذ على عاتقه سرد الحوادث ووصف الأماكن، وتقديم الشخصيات، ونقل كلامها، والتعبير عنها"⁽²⁸⁾.

د. منازل الرؤيا الرابعة ومعادلاتها الفرضية

"جاسم"، "المدينة الكبيرة":

"نظرتُ في عينيه المريحتين، وقلْتُ هل أنت عبد الرحيم؟

ضحك، وقال: لماذا عبد الرحيم؟

قلْتُ: لأن الآخرين كانوا عبد العال وعبد الحميد.

تعمقت ضحكته ثم قال: اسمي جاسم.

صدمني الاسم صدمةً عنيفةً، فهذا عبدٌ آخر يسقط في

فخاخ الفنادق، قلْتُ له حزينا: وصل إليك الدور يا جاسم؟

ومن منا لم يصل إليه الدور؟

قَطَع الحديث وحمل الحقائق، وهو يقول:

المسجد الذي تسأل عنه مهجوراً فقد بنوا مسجداً آخر في

الحي الغربي على الطريقة الحديثة، ويقولون إن الصلاة فيه

(مختلفة إلى حد بعيد)، وما حاجة مثلك إلى مسجد؟

كل شيء في المدينة الكبيرة مُبرمج على الطريقة

الغربية"⁽²⁹⁾.

هذا الحوار الخارجي خير دليلٌ على ما ذهبنا إليه في

التحليل الفني والكشف النقدي سابقاً، "يوسف الذهبي" الآن في

المدينة الكبيرة، وأين تقع هذه المدينة يا ترى؟ إن الاسم يُشير

إليها، "جاسم" من إحدى دول الخليج العربي، إن كل شيء في

هذه المدينة يسير وفق ما يراه الآخر المتسلط الذي يمارس

سلطة القهر على الإنسان العربي وخيرات بلاده، واصفاً حال

الإنسان العربي ونسيانه المسجد الأقصى وعتبات الأماكن في

القدس الشريف أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين حتى قام

اليهود المحتلين بإعمار جزء من المسجد الأقصى الغربي،

وإقامة صلاتهم الخاصة بهم فيه، إن المدينة الكبيرة مدينة

واحدة أصلاً، فُرقَ بين أهلها؛ لتسهيل السيطرة عليها، وممارسة

سلطة القهر المدني والعسكري والاقتصادي والثقافي والسياسي

والديني والاجتماعي... إلخ على المكان المقدس والإنسان

العربي المواطن الأصلي، فقال:

"كثير من مصانع البسكوت والحديد والصلب والشوكولاته

بينه وبين زواجه الطبيعي القائم على الاندماج والألفة والمودة والرحمة والسكن الطيب، فربما رأى البعض أن (توفيق الأثير) كان سيقتف "ماريانا" بطلقاته الثلاث حتى قبل الزواج! بفعل صنيع ثلثة من بعض الحاقدين المارقين، ومنعوا من التحرر والخلص وكما يحزر الخطيب خطيبته من الأسر والأذى ويخلصها منه.

الخاتمة

يمكن القول إن هذه الرواية معمارٌ حقيقيٌّ، وكلُّ متكاملٌ، لا ينفصل جزءٌ منها عن الآخر، فهي كائنٌ حيٌّ، تتكاملُ فيه العناصر كافةً، وتتداخل الأحداث والشخوص والمكان والحوار معاً، بصورة مترابطة، وتتماسكُ الجزئياتُ، بحيث يكون النمو فيها طبيعياً من بدايتها إلى نهايتها، وفي كل ذلك تتكون في قالب متماسك خاضع لرؤية الكاتب من حيث التكنيك الذي يراه. لذا فإن الترتيب الزمني والطبيعي للأحداث يجب ألا يكون عائقاً عن حرية الروائي في عرض الأحداث.

إن قدرة الروائي في توظيف المكان وربطه بالشخصيات والإيديولوجيا تتيح له مجالاً فسيحاً يفوق غيره من ألوان الأدب أو الفنون الأخرى، فيمكنه أن يستخدم "مئات من المشاهد والمواقع، ويستطيع أن ينفقنا إلى أي مكان بكلمة أو كلمتين، وقد يستخدم ستة مواضع مختلفة في فصل أو صفحة، بل ربما يستخدمها في فقرة فحسب. وهذه حرية ضخمة على جانب كبير من الأهمية، ولكن تحرره من قيود الزمن أيضاً ربما أعظم أهمية، فهو يستطيع أن يُعبر أجيالاً أو قروناً بحركة من يده دون أن يحطم الخيال، كما أنه يستطيع أن يتحرك بين فترتين زمنيتين إلى الأمام وإلى الخلف كما يشاء⁽⁴⁰⁾. وهذا بدوره يمكنه من نقل القارئ بين فترات زمنية مختلفة، وأمكنة متعددة، ويكون حاضراً فيها.

وفي روايتنا المدروسة حالياً. أيضاً. تمكن الروائي، بصورة عامة، من توظيف المكان وتداخله مع الأحداث والشخصيات والإيديولوجيا، وقد وفق الكاتب في ذلك الربط والتماهي والتداخل، وأكد على العلاقة بينهما وتشابكهما في تسير أحداث الرواية، والانتقال عيرهما دون قيود تفرض على حركته، مع مراعاة وحدة العمل الفني وتشابكه وتماسكه، وقد يرجع السبب في ذلك إلى رغبة الروائي الدكتور يحيى عابنة في الخروج على النمط التقليدي في ترتيب الأحداث وتسلسلها مكانياً؛ لغاية فنية تتمثل في "التركيز على الحدث، وجعله بؤرة الاهتمام، وتحويل انتباه المتلقي من متابعة التسلسل التقليدي، وماذا بعد؟ إلى السببية والكيفية في لماذا؟ وهذا يعطي الأحداث حركة

الإنسان العربي. لقد عطل الإنسان العربي طرق تحرره وخلص مقدساته من الاحتلال والقهر وتمنى على الله الأمانى، ولجأ إلى وسائل الشعوذة والسحر والعرافة يحاول بها التوصل إلى مرحلة لا يؤنب بها نفسه تارة، ومحاولة منه معرفة المستقبل عليه يرى "القدس" طليقةً دون إن يبذل أي جهد تارة أخرى! إنه الضعف بأمر عينه؛ فإن هذه الرواية كباقي. الروايات العربية الحديثة. تطمح أن تفسر الهزيمة من موقع تاريخي، فهي بهذا المعنى رواية طموحة، ويلجأ في سبيل نقل موضوعاتها إلى استقراء التاريخ بشكل رمزي على أرضية السرد الروائي الواقعية⁽³⁴⁾. مكثت في جبل العرافين زماناً طويلاً، أكثر من عشر شهور، استعدت في خلالها بعض عافيتي الجسمانية⁽³⁵⁾، فما كان مرضه يا ترى؟ وهل حقاً شفى منه؟ إنني لا أظن ذلك!.

و. منازل الرؤيا السادسة ومعادلاتها الفرضية

"توفيق الأثير" و"المدينة المتوسطة"

".... إنني أبحث عن امرأة بعينيها.

- من هي هذه المرأة؟

- إنها أجمل غدير في غدران الوطن، مُحاطة بالأسرار والألغاز"⁽³⁶⁾

"كان من الممكن لكل شيء أن يمضي بصورة طبيعية، لولا تلك الرائحة، رائحة أرض مقدسة تنفذ إلى قلبي فتحيله شظايا من حنين"⁽³⁷⁾ "اسمع! المنسف لا يؤكل بالملاعق، هل أحضر لك واحدة؟".

وأحال أن القارئ الكريم ها هنا يستطيع. وبدقة تصل حد اليقين القاطع. تحديد ماهية المدينة المتوسطة/البلد إنها. ويلا شك. "الأردن" الحبيب جار القدس السليبية وزوجها العذري "إنها رائحة "ماريانا" الجميلة... هل زار طيفها بيته؟ إنها تبدو قريبة جداً⁽³⁸⁾، نعم إنها كذلك، قريبة مكانياً ووجدانياً، وإن قربها ومودتها قديمة، وإنها علاقة تألف روجي فريد من نوعه "لقد تزوجنا زواجاً شرعياً. لقد اشترطت أن تكون علاقتنا علاقة خطيب بخطيبته"⁽³⁹⁾.

إن الأردن مُدَّ عهد الشريف الحسين بن علي. طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جنانه. وإلى عهد جلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين المعظم. رعاه الله وسدد خطاه. يحمل لواء القدس على عاتقه، يريد الأردن. بقيادته الهاشمية المظفرة. أن يُخلص القدس من الأسر والاحتلال والعذاب والقهر المدني والعسكري المحتل، ويريد أن يرى القدس محررة، لكن زواجه ذاك حُكم عليه بالعذرية الأبدية؛ لأن كثيراً من الحاقدين الآخرين حالوا

عالم الكون، وفي بعض تعرف بالمكان لا بأدواتها ولا بوظائفها، أو يصبح المكان يمثل خطأ أساسياً في مكوناتها، وهذا يدل على قدرة المكان في تعميق العلاقة بينه وبين شخص معينة أو أحداث محددة، فالمكان إذا أراد شخصية ما، فإنه يوجه السرد إلى تنسيق الأحداث، بحيث يتم عقد علاقة قرابة أو مصاهرة بين الشخصية الطارئة، وسائر شخص الرواية، وهذا لا يتم إلا في مكان محدد، أي عن طريق ربط تلك الشخص بالواقع المكاني، وإذا لم تتفاعل الشخصية أو تدخل في علاقة معينة عن طريق المكان، فإنها قد تُلْفَظ أو تنتهي إلى زوال⁽⁴²⁾.

وحيوية، ويثير القارئ في انتقال الأحداث من الحاضر إلى الماضي، ثم العودة من الماضي إلى الحاضر ثانية⁽⁴¹⁾. ولاحظت هذه الدراسة أهمية الشخصية في عملها الروائي المدروس حالياً وتداخلها مع بعض عناصر الرواية الأخرى، وأن هناك علاقة حميمة بين المكان والشخصيات التي تتحرك في إطاره، فللمكان أهمية كمية وكيفية على صعيد واحد، فهو قد يتسع لاستيعاب مجموعة من الشخصيات عديدة تتحرك وتتفاعل داخل الرواية المدروسة. أما على مستوى الكيف، فكتابت الرواية الحالية جعل لشخص روايته وطاقته تتحرك من خلالها سواء أكانت فاعلة أم مفعولة أم محايدة، وهذه الشخصيات على مستوياتها المختلفة تأخذ شرعيتها ووجودها ووظيفتها من

الهوامش

- (23) عباينة، رواية "رَجُلٌ وَجِيذٌ جِدًّا"، المصدر السابق، ص 103.
- (24) المصدر السابق، ص 103.
- (25) المصدر السابق، ص 45.
- (26) المصدر السابق، ص 70.
- (27) العقيل، الرواي في الرواية الأردنية بين جبلين، ط1، ص 17.
- (28) قاسم، بناء الرواية، دراسات مقارنة ثلاثية نجيب محفوظ، ص 158، وينظر، عبد الله إبراهيم، المُتخيل السرد، مقارنات نقدية في التناص والرؤى والدلالات، ص 61.
- (29) عباينة، رواية "رَجُلٌ وَجِيذٌ جِدًّا" المصدر السابق، ص 69-70.
- (30) المصدر السابق، ص 83.
- (31) المصدر السابق، ص 105.
- (32) عليان، الحداثة في الرواية العربية في الأردن، باسم الزعبي، ص 82.
- (33) خوري، البحث عن أفق، ص 79.
- (34) عباينة، رواية "رَجُلٌ وَجِيذٌ جِدًّا"، المصدر السابق، ص 86.
- (35) المصدر السابق، ص 101.
- (36) المصدر السابق، ص 101.
- (37) المصدر السابق، ص 101.
- (38) المصدر السابق، ص 101.
- (39) المصدر السابق، ص 102.
- (40) فوتو، عالم القصة، ص 195.
- (41) عثمان، بناء الرواية، المرجع السابق، ص 292، وينظر، ص 107، وينظر، مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المرجع السابق ص 86-87.
- (42) عبد المطلب، تداخلات الرؤية والسرد والمكان في رواية هالة البدرى "منتهى"، مجلة "فصول"، مج 15، عدد 4، ص 302.

- (1) عباينة، رواية "رَجُلٌ وَجِيذٌ جِدًّا"، ط 1.
- (2) الرازي، مختار الصحاح، مادة (كون).
- (3) بن منظور المصري، لسان العرب، مادة (مكن).
- (4) باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط 3، ص 6.
- (5) بدوي، الرواية الحديثة في مصر، ص 130.
- (6) عثمان، بناء الرواية، دراسة في الرواية المصرية، ص 59.
- (7) عواد، جهود جبرا إبراهيم جبرا النقدية، ص 194.
- (8) مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، "سلسلة عالم المعرفة"، ص 155.
- (9) السعافين، تحولات السرد، دراسات في الرواية العربية، ط 1، ص 165.
- (10) الحديدي، الفن القصصي في ضوء النقد الحديث، ط 1، ص 89.
- (11) نجم، فن القصة ص 89.
- (12) مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، ص 156، وينظر، ص 157-158.
- (13) منيف وآخرون، القلق وتمجيد الحياة، ط 1، ص 164.
- (14) عباينة، رواية "رَجُلٌ وَجِيذٌ جِدًّا"، المصدر السابق، ص 7.
- (15) المصدر السابق، ص 16.
- (16) المصدر السابق، ص 37.
- (17) المصدر السابق، ص 41.
- (18) المصدر السابق، ص 52.
- (19) المصدر السابق، ص 52.
- (20) المصدر السابق، ص 82.
- (21) ينظر، القرآن الكريم، سورة يوسف، وينظر -أيضاً- المصدر السابق، ص 101، وهنا يُحيل الكاتب المكان على الشخصية.
- (22) العناني، طريق صلاح الدين الأيوبي إلى القدس . المشهد

المصادر والمراجع

العقيل، أسهان علي، 2008م، الراوي في الرواية الأردنية بين جبلين -دراسة نقدية تطبيقية، منشورات أمانة عمان، عمان، الأردن.

عليان، حسن، الحدائث في الرواية العربية في الأردن، الرواية في الأردن، أوراق ملتقيات عمان الإبداعية، ملتقى الرواية في عمان، إشراف وتحرير باسم الزعبي ومحمد جمال عمرو، 2002م.

العناني، جاسر علي، 2004م، طريق صلاح الدين الأيوبي إلى القدس، المشهد السياسي والعسكري قبل الفتح وبعده، دار فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1.

عواد، إبراهيم عبد الرزاق، 2004م، جهود جبرا إبراهيم جبرا النقدية، كلية التربية، جامعة عين شمس وجامعة الأقصى، مصر، رسالة دكتوراه، مخطوطة.

فوتو، برناردي، عالم القصة، ترجمة محمد مصطفى هدارة، 1969م، عالم الكتب، القاهرة.

قاسم، سيزا، 1984م، بناء الرواية، دراسات مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص158.

مرتاض، عبد الملك، 1998م، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

منيف، عبد الرحمن، وعبد الواحد لؤلؤة وفيصل دراج وغيرهم، 1995م، القلق وتمجيد الحياة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

نجم، محمد يوسف، 1996م، فن القصة، دار صادر، بيروت، ودار الشروق، عمان، ط1.

القرآن الكريم

إبراهيم، عبد الله، 1990م، المتخيل السرد، مقارنات نقدية في التناسخ والرؤى والدلالية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1.

باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، 1987م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3.

بدوي، محمد، 1993م، الرواية الحديثة في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.

بن منظور المصري، (ت711هـ) لسان العرب، تقديم الشيخ عبد الله العلايلي، 1988م، دار الجليل، ودار لسان العرب، بيروت.

الحديدي، عبد اللطيف محمد، 1996م، الفن القصصي في ضوء النقد الحديث، دار المعرفة، مصر، ط1.

الرازي، محمد بن أبي بكر (ت666هـ)، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، د.ت، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

السعافين، إبراهيم، 1996م، تحولات السرد . دراسات في الرواية العربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1.

عبابنة، يحيى، 1999م، رواية "رجلٌ وحيدٌ جداً"، دار الفارس، بيروت، ط1.

عبد المطلب، محمد، 1998م، تداخلات الرواية والسرد والمكان في رواية هالة البدرى "منتهى"، مجلة فصول، مج 15، عدد4، القاهرة.

عثمان، عبد الفتاح، 1982م، بناء الرواية، دراسات في الرواية المصرية، مكتبة الشباب، القاهرة.

The Place in the Novel "Very Lonely Man" by "Dr.Yahia Ababinah"

*Muhammad Majed Al-Dahkeel**

ABSTRACT

This research deals with place as it one of the elements of the novel "Very Lonely Man" showing the importance of place in this novel. The research also cleared out the writer's ability in making use the place with the relation to novel elements as characters, events and ideas showing the nature of relation among them, and the interaction of place between them with fine and beautiful style, through application.

Keywords: Place, Novel, Very Lonely Man.

* Irbid University College, Al-Balqa'a Applied University, Irbid, Jordan. Received on 31/1/2012 and Accepted for Publication on 14/5/2013.